الفقيه والمحتسب ودورهما التنظيمي في حركة الأسواق ببلاد المغرب العربي الإسلامي خلال العصور الوسطي

د.ماجدة مولود رمضان الشرع

أستاذ المساعد في التاريخ الإسلامي / كلية الآداب / جامعة طرابلس - ليبيا

Summary:

Jurisprudence and calculated and their regulatory role in the movement of markets in the Arab Maghreb during the Middle Ages

The Islamic Maghreb has witnessed during the middle images a remarkable and important activity in the system of work of markets, which contributed to the increase of the value of these markets economically and morally in terms of the commitment of scholars and accountants to the provisions of the Islamic religion and the Sunnah of the Prophet regarding the financial and regulatory transactions in the markets.

In this research we will try to clarify what the jurist and calculated and the work system within the markets of bread, textile and livestock, in addition to their role in the organization of markets that are located inside and outside the city.

توطئة

شهدت بلاد المغرب العربي الإسلامي خلال الصور الوسطي نشاط ملحوظ ومهم في نظام عمل الأسواق ، حيث ساهم هذا النشاط في الرفع من قيمة تلك الأسواق اقتصاديا وأخلاقياً من حيث التزام الفقهاء و المحتسبين بما نص عليه الدين الإسلامي وسنة نبيه حول ما يخص المعاملات المالية والتنظيمية في الأسواق .

في هذا البحث سنحاول توضيح ماهية الفقيه والمحتسب ونظام عملهما داخل أسواق الخبز والنسيج والمواشي ، إضافة إلي ذلك دورهما في تنظيم الأسواق التي تقع داخل المدينة وخارجها .

1. ماهية الفقيه :

الفقهاء هم طبقة المجتمع المرموقة و يتميزون بمكانة اجتماعية في عهود ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ؛ نتيجة لكفاءتهم العلمية[1] ، حيث ارتبطوا هؤلاء الفقهاء بتعلم وبتدريس الفقه للعامة والذي كانت له أهمية عند علماء المسلمين ؛ وذلك لارتباط هذا العلم بالدين الإسلامي وعمق اتصاله بمصادره الكريمة المتمثلة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. [2]

2 - ماهية المحتسب :

المحتسب هو الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر إذا ظهر فعله ووظيفته مما ليست من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم [3] ، وشروط متولي وظيفة المحتسب أن يكون رجلاً عاقلاً عفيفاً ، خيراً وورعاً وعالماً ، غنياً ونبيلاً ، عارفاً بالأمور فطناً ، لا يميل ولا يرتشي ؛ فتسقط هيبته ويستخف به . [4]

3 - نظام عمل المحتسب والفقيه في أسواق الخبز – النسيج - المواشي

تتم عملية الحصول على الخبز عادة عن طريق الفرن الخاص بصناعته في السوق أو يتم تجهيزه في المنزل، ففي كثير من الأحيان يتم تجهيزه في البيوت؛ حيث كان يفضل الخبز طازجاً لكل وجبة وكانت المرأة تتولى مهنة العجن ثم تحضيره . [5]

والفئة التي يمكن إدراجها ضمن قائمة الحرفيين هم أولئك الذين يقومون بتحضير الخبز ليباع في لأسواق، حيث كانوا يجمعون بين التجارة والصناعة ، فقد تحدث أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي حول ذلك في كتابه المعروف في آداب الحسبة ، حيث قال :" فمنهم باعته، ولمفسديهم خدع وغش منها أنهم يخلطون الطيب مع اللطيف ويبدون الجميع بسوم الطيب الذي قد رسمه عليهم المحتسب، ومنهم أنهم يجعلون الطيب على اللطيف ليراه المشترى ثم يغرف له من الوسط ويعطيه وهو في غفلة

---

[1] . أنور محمود زناتي ، معجم المصطلحات التاريخية و الحضارة الإسلامية ، دار زهران ، عمان ، 2011م ، ص 126.

[2] . على محمد بن سعيد الزهراني ، الحياة العلمية في صقلية الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1995م ، ص 291.

[3] . أحمد عبد الحليم بن تيمية ، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د _ ت) ، ص 16 .

[4] . القرطبي ، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق : ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، 1955م ، ص 20 .

[5] . جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرن 4 الهجري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، (د- ت) ، ص 189.

عما في داخل الظاهر ويسمون ذلك المغفر ومنهم يخلط فيه النخال " [6]وهذا يدل على انتشار ظاهرة الغش في مكونات صناعة الخبز ، حيث يتم خلط الدقيق الجيد بالرديء - هذا بالنسبة لصانعي الدقيق- و هنا يأتي عمل المحتسب وبالطبع هذا سيخضع لمراقبته [7]الذي يقوم بتدوين أسماء الخبازين والأماكن التي يزاولون فيها حرفتهم و إحصاء عددهم .[8]

هذا وقد انحصرت تعليمات المحتسب حول نظام عمل الخبازين في مخابزهم في نهيهم عن خلط البارد من الخبز بالحار ويفرقون بين الطيب وغيره ولفصل بينه و بين الفطير، كما منعهم عن رش وجه الخبز قبل الطبخ بالماء والعسل وإقلال الملح. [9]

كما كان المحتسب يراقبهم في نظافتهم فكان يحرص على أن تكون ملَبسهم نظيفة و أوانيهم كذلك ، أيضا كان ينهاهم عن التدخين أثناء ممارستهم لعملهم، حيث ذكر الشيرازي في ذلك بقوله :" يأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها وغسل المعاجن ونظافتها ، وما يغطى به الخبز ، وما يحمل عليه " [10] ولا يعجن العجان بقدمه كما يمنعهم من العجن بركبتهم ومرفقيهم ؛ لأن هذا فيه مهانة للطعام ، كما يجب أن يكون الخباز ملثما ؛ وذلك لتجنب العطس في العجينة ، ويشد على جبينه عصابة بيضاء حتى لا يقطر عرقه فيها ، كما يجب عليه أن يحلق شعر ذارعيه حتى لا يسقط منه شيء في العجين ، وإذا عجن في النهار يجب أن يكون عنده خادم يعمل على طرد الذباب هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل الدقيقة . [11]

كان الفقهاء يساعدون المحتسبين في إيجاد عقوبات رادعة لكل من يخالف التعليمات الصادرة من المحتسب ، ومن هؤلاء الفقهاء الفقيه يحيي بن عمر، فقد أشار إلي ذلك في كتابه أحكام السوق عندما

---

[6] . السقطي ، آداب الحسبة ، طبعة دنن ، (د– ت) ، ص 21.

[7] . الصحصاح حمد محمد حمد، الحسبة في الدولة الفاطمية (297 – 567 ه) ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ، كلية الآداب بجامعة الخرطوم، 2000م ، ص36.

[8] . مؤلف مجهول ، أرجوزة في علم الحسبة ، تحقيق : محمد فرقاني ، منشورات نوميديا ، الجزائر ، 2014م ، ص 47.

[9] . القرطبي ، آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق: فاطمة الإدريسي ، دار ابن حزم ، الرباط ، (د– ت) ، ص 73.

[10] . الشيرازي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 2010م، ص 8 .

[11] . المصدر نفسه والصفحة .

وجهت له مسألة من رجل تتعلق ببيع الخبر الذي فيه حجارة اشتراه من مخبز فكانت إجابة الفقيه يحيي بأن يرجعها وينقص منها قدر ما أكل ثم يرجعها البائع إلى صاحب الفرن الذي اشتراها منه الحوانيت أن لا يطحن القمح الذي يعمل منه الخبز حتى يغربله و ينقيه من الحجارة . [12]

لمهنة الخبازين بعض التخصصات المهمة التي تساهم في الرفغ من قيمة أدائها ومن تلك التخصصات الغاربلي الذي يستخدم أداة الغربال في إعداد الخبز ومنها جاء لقب الغاربلي أو الغربالیون وغشهم بأن لا يستوفوا تنقية الطعام مما فيه ولا الدقيق من نخالته ولهم مع ذلك في الوزن حرص مع الطحانين وأصحاب الدقيق .[13]

في القرن الثامن الهجري تم استحداث عدد من الطواحين الخاصة بطحن الشعير والقمح في عدد من مدن المغرب العربي الإسلامي ، فقد استحدثت في مدينة تونس طواحين لقلي الحبوب في الأسواق والدور، لكن دخانها أضر بالسكان فدارت عدة نوازل حول ذلك منها بعض النوازل التي تحدث عنها الونشريسي حيث سئل ابن الغماز عن رجل كانت له كوشة فيها بيت نار واحد فأراد صاحب الكوشة أن يحدث بيت نار آخر في الكوشة، وأراد أن يخرج دخانها في مدخنة نفس فأجاب بأن يسد عليه بيت النار المحدث لزيادة الضرر وبذلك حكم القاضي أبو زيد القطان .[14]

وحول ذلك فقد أمرهم المحتسب برفع سقائف حوانيتهم وتفتح أبوابها ويجعل في سوق الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان حتى لا يكون هناك أضرار على الناس .[15]

كما كان أصحاب الدور المجاورة لهذه الأفران منزعجون من وجود الأفران المجاورة لهم لأنهم كانوا يتأذون من الدخان الخارج منها، فأمرهم الفقهاء بأن يصنعوا أنبوبا في أعلى الفرن ليخرج الدخان من أعلاه فلا يضر بذلك من يجاوره، ولا مانع من بناء الفرن داخل الإحياء السكنية.[16]

كان للمحتسب يد في تنظيمهم وفق إعطائهم مجموعة من التعليمات والأوامر التي تنظم مجالهم . حيث فرقهم على الدروب وأطراف البلد لما فيهم من مرافق وعظم حاجة الناس إليهم كما يأمرهم بتنظيف بلَط الفرن في كل ساعة من اللباب المحترق حتى لا يلتصق في أسفل الخبز منه شيء .[17]

---

12 . يحيي بن عمر الأندلسي ، أحكام السوق في جميع أحوال السوق، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 2005م ، ص54.

13 . القرطبي ، المصدر السابق ، ص 29 .

14 . الونشريسي ، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ن ج9 ، وزارة الشؤون الدينية للمملكة المغربية، الرباط، 1981م ، ص 8.

15 . ا المصدر نفسه ، ج9 ، ص9.

16 . ابن الرامي: الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق : فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي ، تونس ، 1999م ، ص 60 .

كما ينهاهم عن كشف الخبز قبل إدخاله في الفرن لئلا يغلب عليه النار كما يجب عليهم أن يميزوا بين خبز القمح وغيره ولا يخلط بينهم [18]ولا يخرجون الخبز من بيت النار حتى ينضج نضجا جيداً من غير احتراق ومراقبته لهم في أخر النهار ولا يمكن لأحد من صناع الخبز من المبيت في أكسية العجين التي يأمرهم بنشرها على حبال بعد نفضها وغسلها في كل وقت.[19]

فيما يتعلق بالنسيج وصناعته فالأغلب كان من اختصاص النساء ، حيث كن يمارسن هذه الحرفة إما في البيت مثل ما تكشف بعض ، والفقيرات يغزلن لحساب الغير وهذا ما كشفته لنا النوازل الفقهية أن الغزل والنسيج لعبا دوراً في العلاقة بين الزوجين، فبعض الأزواج يشدد على زوجته ألا تقوم بنسيج غيرها ولا تستعين بأحد من النساء، أو تتأزم العلاقة بينهما فيحلف أن لا يرتدى من نسجها .[20]

إذ اقتصرت المرأة على غزل الثياب لأفراد أسرتها، المغزل هو الآلة الموجودة في كل منزل فقط واحترفته وتكسبت منه وكان التكسب من حرفة الغزل والنسج لوقت زمني مثل المرور بضائقة مالية [21] .

وقد نوه الفقهاء إلى كراهية غزل الكتان في شهر رمضان لأن المرأة في عملها تقوم بوضع الخيط في فمها لتبلله بلعابها ويصادف أن يكون له طعم فيبطل صيامها واستثنت من ذلك المرأة المحتاجة إلى المال .[22]

---

17 . الشيرازي ، المصدر السابق ، ص 8 .

18 . القرطبي ، المصدر السابق ، ص 75- 76 .

19 . ابن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، مطبعة دار الفنون، بكيسبرج، 1938م ، ص 94- 95.

20 . نجلاء سامي النبراوى : المرأة العاملة بالمغرب والأندلس ، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية ، (د- ت) ، ص 26.

21 . الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ج2 ، ترجمة : حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط2 ، 1992 ، ص 249 .

22 . محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج2 ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999م ، ص479.

كانت هناك نساء ماهرات في صنع الثياب الصوفية والخمائل بالإضافة إلى وجود ماهرات في صنع الزاربي ، حيث شجعت عددا كبيرا من السكان إلى المشاركة في هذه الحرفة التي استمرت حتى سقوط الدولة الزيانية .[23]

وقد برعت النساء أيضا في الخياطة والطرز النساء في منازلهم حتى اتخذوها مهنة وهذا خاصة في حالة ما إذا كان الزوج فقيرا، فكن يطرزن بالخيط المذهب والمفضض وكانت تحتكره المرأة الغنية الميسورة الحالة وهناك أيضا صناعة أغطية السرير التي كانت تبيعها بأسعار غالية خاصة في فاس[24] .

ومن الصناعات أيضا صناعة الكسي والحنابل ففي نازلة من نوازل المازوني نجد امرأة توفي زوجها وأصبحت تعمل ما يعمله النساء في البادية من كسي وحنابل .[25]

فيما يتعلق بتربية الماشية فقد اتسع نطاق العمل فيها في عدد من مدن ومناطق المغرب العربي الإسلامي خاصة بعد غزوة بني هلال وبني سليم سنة 441هـ / 1049م [26] والتي كان لها بالغ لأثر في تردي الوضع الزراعي بالمنطقة ؛ فتسبب ذلك في اتجاه المزارعين إلي تربية الماشية من الأغنام والماعز والبقر واستخدام نوى التمر المدقوق في تعليفها .[27]

---

[23] . الهادي روجي إدريس، لمرجع سابق، ج2 ، ص249.

[24] . نجلاء سامي النبراوى، المرجع السابق ، ص 26.

[25] . التلمساني ، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق : على الشنوفي ، خزانة التراث العربي ، القاهرة ، 1967م ، ص 264.

[26] . شهدت بلاد المغرب الادني (ليبيا وتونس) نزوح وهجوم أكبر تجمع قبلي عربي صرف من قبائل بني هلال وبني سليم بإيعاز من الخلافة الفاطمية في مصر والتي أرسلت تلك القبائل كردة فعل على قرار القطيعة السياسية والمذهبية الصادر من قبل الأمير الزيري المعز بن باديس والذي لم يكن راضيا ومقتنعا لحكم الفاطميين الاسمي لبلاد المغرب العربي الإسلامي .

للاطلاع على هذه الأحداث يُنظر إلي : المقريزى ، اتعاظ الحنفا في أخبارا لائمة الفاطميين الخلفا ،ج 2 ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1999م ، ص 213.

[27] . الهادي روجي إدريس، ج2، المرجع السابق، 249.

كان للمحتسب والفقيه دوراً بارزاً في عملية تنظيم مهنة تربية المواشي وبمختلف أنواعها ، حيث وُجدت هناك فتاوى ونوازل حول ما يخص ذلك ، منها على سبيل المثال ما ذكره الونشريسي في كتابه حول مسألة من يربون حيوانات في اصطبلات في منازلهم ومدي أن تحدث هذه الاصطبلات إزعاج للجيران ، حيث أشار الونشريسي بذلك إلي مسألة فقهية وجهت إلي القاضي ابن الرفيع سئل في إحدى النوازل عمن أحدث اصطبلَ لدابة صغير خلف بيت جاره فاشتكى صاحب الدار ضرر الدابة. وقد أجاب بوجوب زواله وإخراج الدابة منه فإذا كان محتاج ومعاشه من الدابة فقد أفتي في ذلك بأن يجعل لها اصطبلَ تحت الأرض في شكل حفرة يرفع في الحفرة حائط تحت الأرض بخمس أشبار إلى منتهى السقوف [28].

وفي مسألة أخري ذكر الشيخ الفقيه القاضي أبو إسحاق ابن عبد الرفيع رحمه الله: يمنع من إحداث الاصطبل عند جاره لما فيه من ضرر وبول الدواب وحركتها بالليل وإصدار الحركة المانعة من النوم [29].

4 - نظام عمل المحتسب والفقيه في الأسواق (داخل وخارج المدن)

- أولا : داخل أسواق المدن :

تميزت الأسواق في بلاد المغرب العربي الإسلامي بمختلف مواسمها وتقسيماتها بالتنظيم المحكم ، حيث كان يراعي فيها مدي درجة الضرر من عدمه في كل حرفة ومهنة سواء تلك التي تكون بالقرب من دور العبادة كالمساجد؛ لما – قد سببه من إزعاج للمصلين ، أو التي تكون عادة في وسط السوق وضررها ليس بالكثير ، وهناك بعض المهن والحرف يستدعي مكانها أن يكون خارج السوق ، وحول ما عرض سابقاً نستعرض الآن دورا لمحتسب والفقيه في هذا وقدرة كليهما في تنظيم وإدارة الأسواق وما يجري فيها ،كان المحتسب يهتم بمراقبة الموازين والمكاييل ومراقبة النقود والأسعار ومحاربة ظاهرة الغش ، كذلك من مهامه الإشراف على نظافة سير عمل كل حرفة في السوق و الحفاظ على صحة الناس و ذلك من خلال حرصه على نظافة المكان ، فمنعم من إلقاء بعض الفضلات والقمامة التي قد تسبب آذى للناس في طرقات السوق ويهدد من يفعل ذلك بالعقاب , كما كان يمنعهم من ترك الطين المبلول في الطرقات حتى لا يتسبب في إيذاء الناس وفي هذا الصدد سئل يحي بن عمر عن

[28] . ابن الرامي ، المصدر السابق ، ص66.

[29] . المصدر نفسه والصفحة .

الطين إذا كثر في الأسواق هل يجب على أرباب الحوانيت كنسه فكان جوابه بوجوب كنسه خاصة إذا أضر بالناس .[30]

كما كان يعاقب كل من يطرح الأزبال والفضلات بالقرب من المساجد ؛ لما فيها مضرة على المارة من الناس والمصلين الذين ستلحقهم نجاسة لو ساروا عليها وبخصوص هذا ما ذكر الفقيه التلمساني حين قال : " يتجنس المار وقد يقع فيها الصبيان والماشي ليلَ وربما كان المطر وسال بعض ذلك مع الماء وخالط كثير من طرقات المسلمين فعظمت المضرة واشتدت به المصيبة " [31]

كذلك من التعليمات الأخرى الموجة من المحتسب والمؤيدة من الفقيه بالكتاب والسنة يمنع إلقاء الجيف في الطرقات لما تسببه للمارة من روائح .[32]

شدد المحتسب على أصحاب الدكاكين عدم إخراج دكانهم عن سمت أركان السقائف إلى الممر فيجب أن تكون الدكاكين مبنية على خط واحد، كما منعهم من غرس الأشجار والجلوس في الطرق الضيقة حتى يسهل على المارة العبور .[33]

هذا بالنسبة لنظافة الأسواق وطرقاتها، أما بالنسبة للحرف فقد كان للمحتسب الدور الأساسي في تنظيمهم، فجعل في وسط المدينة سوق يحتوي على دكاكين التجار وكان هذا المكان محاط بسلاسل غليظة من حديد طولها حوالي خمسة عشرة زقاق للدكاكين يدعى سوق القيسارية [34] كانت تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكباً، ومن أهم القيساريات القيسارية الموجودة بمدينة فاس فمن أهم أزقتها: زقاق الاسكافيين فكانوا يصنعون أحذية مطرزة بالذهب والحرير [35] وقد كان المحتسب يراقبهم بصفة دائمة إذ أن بعضهم كانوا يغشون في هذه الحرفة فكانوا يستخدمون شعر الخنزير في صناعتهم للأحذية فكان المحتسب يمنعهم من ذلك كما كان يأمرهم بعدم وضع الورق على أحذية النساء حتى لا

30 . يحي بن عمر ، أحكام السوق ، ص 95.

31 . التلمساني ، تحفة الناظر ، ص 65.

32 . المصدر نفسه والصفحة .

33 . ابن الإخوة، المصدر السابق سابق، ص 82.

34 . جمال أحمد طه: مدينة فاس في عصري ألمرابطي والموحدى 448هـ / 668م ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، 2001 م ، ص 224.

35 . الصحصاح حمد محمد، المرجع السابق، ص 36.

تظهرن عند السير[36] ، كما كان ينهي عن خلط القطن القديم بالقطن الجديد ووضعه في الأماكن الرطبة ؛ لأن ذلك يزيد من وزنه فيؤدي بهم إلى الغش في المكاييل والموازين .[37]

أما بالنسبة لصناعة الحرير فكان أكثرها للنساء لأن هناك من الفقهاء من أنكر لبس الحرير المغزول للرجال، كما أنكروا بيعه للذهب. حيث سئل[38] ابن عتاب[39] عن صانعي الحرير هل يجوز عمل العمائم للرجال، وهل يجوز بيعها فأجاب: أنه يمكنه بيعها للرجال فقد يشتريها لكن لا يلبسها، وهناك نازلة أخرى من نوازل[40] ابن سهل .[41]تتحدث عمن يبيع الذهب المغزول المحمل على الجلد بيعه بالذهب فأجاب – أبا المطرف بن سلمة -: لا يجوز بيعه بالذهب وذلك أنه فيه يفاضل بين الذهبين لكن يجوز بيعه بالفضة .[42]

أيضا هناك من الحريريين من يثقل الحرير بالنشاء المدبر أو بالسمن وغيرها فكان المحتسب يمنعهم من فعل ذلك كما كان يمنعهم من صبغ حرير القز قبل بيعه لئلا يتغير بعد ذلك [43] ، أما الدلالين الذين يحملون السلع من دكان إلى دكان ينبغي أن لا يتصرف أحد منهم أو يؤدي خدمته إلا أن يثبت في مجلس المحتسب كما لا ينبغي أن يزيد في السلعة كما حتى يزيد فيها التاجر ولا يقبض ثمن سلعة من

---

[36] . الصحصاح حمد محمد، المرجع السابق ، ص 36.

[37] . الجياني ، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام ، تحقيق: يحيي مراد ، دار الحديث ، القاهرة ، 2007م ، ص 205 .

[38] . المصدر نفسه والصفحة .

[39] . ابن عتاب : هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب القرطبي ، فقيه وعالم بالقراءات وبالتفسير اللغة . محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ج1 ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ، 1999م ، ص 57.

[40] . الجياني ، المصدر السابق ، ص 205.

[41] . ابن سهل : هو عيسي بن سهل بن عبد الله الأسدي ، فقيه وعالم بالتفسير كانت له رحلات علمية لبلاد الأندلس ؛ حيث التقي بعلمائها وفقهائها. محمد بن مخلوف ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 43.

[42] . الجياني ، المصدر السابق ، ص 205.

[43] . الشيرازى ، المصدر السابق ، ص 27.

غير أن يوكل بذلك من صاحب السلعة ينبغي عليه أن ينبه المشتري إذا كان في السلعة عيب وعادة ما يكون عددهم في المدن حوالي سبعون دلالا .[44]

كانت صناعة العطور في بلاد المغرب العربي الإسلامي مرتبطة ببيع العقاقير وكانت هذه الأخيرة من أجمل التخصصات وأرقاها ، بالنسبة لهذه الحرفة فكان من واجب المحتسب الاعتناء بها حيث يجب أن لا يمكن أحد من بيع العقاقير أو أصناف العطر إلا إذا كانت عنده الخبرة الكافية لذلك [45]، وقد جعل لهذه الصنعة سوق خاص بها يباع فيه أنواع العطور والعقاقير يسمى بسوق العطارين [46]، وقد لقي توافد كبير خاصة من طرف النساء ما أدى بجمهور الفقهاء إلى الاشتكاء العطارين من كثرة توافد النساء عليه واختلاطهن بالتجار وكانت هذه الأسواق تشتهر خاصة عند بني زيان _في تلمسان وحول هذا أشار الوازن بقوله : " لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن حتى أن العطارين هم دائما أخر من يغلقون دكاكينهم " .[47]

كما أن هذه السوق اهتمت بصناعة العطور وبيعها وتوزيع عديد المواد المرتبطة بها كما اتسع نشاطها إلى بيع بعض المواد الغذائية[48] ، وقد كان سوقهم من بين الأسواق التي ارتبطت بالتجارة الخارجية ومما يذكر في هذا الصدد أن العطارين يعمدون إلى تلقي السلع الواردة عليهم من المدن الأوروبية قبل وصولها إلى السوق فيحولونها إلى فنادق النصارى' بعد هذا السوق تأتي أسواق أخرى ذات حرف متنوعة من أهمها: سوق الزجاجيين أو صانعي الزجاج التي كانت تشتهر بصناعته عدد من المدن المغرب العربي الإسلامي منها القيروان وفاس ومدينة قفصة .[49]

---

44 . مارمول كريخال: إفريقيا، ج2 ، ترجمة : محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط ، 1989م ، ص 150.

45 . ابن الإخوة، المصدر السابق، ص 124 .

46 . مختار الحساني ، تاريخ الدولة الزيانية – الأحوال الاقتصادية والثقافية، منشورات الحضارة ، الجزائر ، 2009م

47 . الوازن، وصف إفريقيا، ترجمة : محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1983م. ص 78 .

48 . محمد حسن ، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج2 ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999م ، ص 493.

49 . محمد محمد زيتون ، القيروان ودورها الحضارة الإسلامية ، دار المدار ، القاهرة ، 1988م ، ص 180.

رغم أهمية هذه الحرفة و ما أحرزته من تطورات في مختلف الصناعات الأخرى إلا أن هناك من اشتكى منها من قبل السكان؛ وذلك لما سببته من أضرار خاصة إذا كانت تمارس داخل المدينة فهناك العديد من النوازل التي تثبت ذلك. ضرر الأصوات مما تسبب في انزعاج السكان ، حيث كان يعتمد على دق نوى النمر في صنع طعام البهائم[50] ، وبخصوص ذلك سئل احد الفقهاء ويدعي [51] أبو عبد الله الحفار[52] في إحدى النوازل التي تحدث عنها الونشريسي عن زجاج طرأ على بلدة وصار يعمل بها ويستعمل في ذلك نوى التمر في تلك البلدة ثمن النوى يرتفع فتضرر أهل القرية من ذلك فأجاب الفقيه: إذا كانت حاجة الناس إلى النوى وليس إلى عمل الزجاج فيمنع الزجاج من وقود النوى. ونظر إلي الضرر الذي سببته هذه الحرفة جراء مزاولتها في السوق عمل المحتسب على منع أصحاب هذه الحرفة وتخصيص زقاق خاص بهم وسط المدينة لكن بعيد عن الجامع ؛ حتى لا يؤذي الناس بضرر صوته [53] .

ذكر كريخال أن بجانب هذا الزقاق يوجد ما يزيد عن تسعين دكان للزجاجيين وعلى بعد يسير هناك ساحة أخرى يقيم فيها المحتسب الذي كان يشرف على المراقبة كما عين أكثر من عامل لمساعدته في عملية المراقبة معروفون بلقب أمناء السوق .[54]

إضافة إلي دكاكين الزجاجيين هناك دكاكين للخضار والحلوى والإسفنج ودكاكين للشوائيين التي يباع فيها اللحم والسمك المطبوخ [55] كان المحتسب يراقبهم لعدم غشهم في المكاييل والموازين والأرطال كما ينهون عن خلط ما هو رديء بما هو جيد وذلك في حالة إذا اشتروا كل واحدة منها على انفرادها بسعره. أما بالنسبة للعسل فمنهم من يغش فيه وذلك بمزج العسل القصب بالماء الحار ويرشه

---

50 . مارمول كربخال ، المصدر السابق ، ص 149.

51 . المصدر نفسه والصفحة

52 . أبو عبد الله الحفار : هو محمد بن على الحفار الأنصاري الغرناطي ، إمام ومحدث ومفتي . محمد بن مخلوف ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 247.

53 . مارمول كريخال المصدر السابق . ص 149.

54 . المصدر نفسه والصفحة .

55 . الشيرازي ، المصدر السابق ، ص 28.

على الرطب ومنهم من يغش في الزيت وقت نفاقه بدهن القرطم وكان يعرف إذا كان مغشوش أم لا فكان يترك على النار فإذا كان له دخان عظيم لدرجة أنه يخنق فهو مغشوش فيعاقب صاحبه .[56]

تلي هذه الدكاكين دكاكين للجازرين يباع فيها اللحم فيستحب فيه أن يكون مسلما بالغا عاقلَ ، وان يكون عالما بشروط الذبح في الإسلام [57] ، فينبغي على هؤلاء الجزارين لبس زى خاص وقد كثر عددهم وذلك بسبب شهرة المنطقة بتربية الحيوانات الخاصة بالذبح، حيث يأمرهم المحتسب بتسمية الله تعالى في الإجهاز عليها ولا يرفع يده حتى يفري الحلقوم والأوداج ولا ينفخ فقال ابن حبيب: فان فعل ذلك متعمدا لم يؤكد الذبيحة .[58]

كما يأمرون بالتفريق بين لحم الضأن والماعز يتخذون عوداً يقطعون عليه اللحم فيكون نظيفا، كما يوضع عليهم أمين يعلمهم سنة الذبح ونظراً لما ينتج عنها من تلوث فقد خصص مكاناً للذبح عادة ما يكون خارج أسوار المدينة .[59]

- ثانيا: خارج المدن

شهدت مدن المغرب العربي الإسلامي الخارجية حرف أخري كانت تمارس خارج نطاق المدن ، وهذا راجع إلى أضرارها البالغة على السكان سواء كانت أضرار صحية، أو مادية مما استوجب على الفقهاء والمحتسبين أن يصدروا الأوامر لإخراجها خارج المدن، وذلك بهدف حماية السكان من الضرر التي قد تنجم عنها ومن بين هذه الحرف الأريحية (الطواحين) ذات الطاقة الحيوانية ، حيث كانت ذات أعداد كبيرة غالبا ما تحتاج إلي كمية وافرة من الطحين ففي مدينة تونس مثلَ بلغ عدد الأريحية قرابة

---

[56] . المصدر نفسه والصفحة .

[57] . سعيد بن حمادة، " المغرب: جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية بالمغرب الإسلامي "، مجلة عصور جديدة ، جامعة وهران ، الجزائر، 2012م ، ص 75.

[58] . القرطبي ، المصدر السابق ، ص 78.

[59] . عبد العزيز بن عبد الله: كيف بدأ التصنيع في المغرب؟، مجلة دعوة الحق، العدد 267 ، أكتوبر ، الرباط ، 1987م ، ص 82.

المائة وعشرين طاحونة ... وقد كانت تدار بالدواب من الجمال وغيرها كما ظهر ما يسمى باكتراء الأريحية داخل المجال الحضري .[60]

وضع المحتسب شروطاً لتنظيمهم حيث ينبغي أن يعرف عليهم عريفاً ثقة يأمرهم أن يكون في كل طاحونة ميزان خشب نظير لموازين الحبس وأن تكون الحجارة التي يوزن بها القمح مجلدة معايرة مختومة بالرصاص فيكتب عليها بالحبر بخط المحتسب فيكون الميزان معتدلا حتى لا يقع الضرر كما يحلفهم أن لا يخون أحد في قمحه كما يوصي بعد ذلك أرباب الدواب أن يتقوا الله تعالى في ترفيهها في كل يوم و ليلة لحاجتها إلى الراحة والسكون .[61]

أما الأريحية المستعملة للطاقة المائية فقد كانت تحتوي على آلات عديدة وتجهيزات لازمة من بينها: عدد من الأحجار والْعمدة والساقية التي يخرج منها الماء والبيت التي تضم الرحى والاصطبل المقام للدواب من ناحية معلومة من الرحى. وفي كثير من المدن يلاحظ أن الأريحية مجتمعة في مكان واحد يؤدي إليها أحد أبواب المدينة ففي تيهرت أطلق اب المطاحن .[62]

بينت لنا بعض نوازل البرزلي بعض أنواع الأريحية وكيفية تعامل مالكيها بها ، حيث سئل ابن رشد عمن له ساقية رحى تمر في أرض رجل فتنبت بحافتيها وقعرها شتم فهل يكون لصاحب الأرض أو الساقية، فان كان لصاحب الأرض فهل لصاحب الساقية إذا اجتمع كناسه هل يلقيها أم يأمره بإطراحها ؟ فأجاب : اذ لم يملك صاحب الساقية إلا المرور لصاحب الأرض كل ما نبت وان ملك رقبة الساقية له ما نبت في قعرها وجوانبها .[63]

تمكن بعض الفقهاء والقضاة من وضع ضوابط حول قياس درجة اهتزاز الجدران مثل الونشريسي وابن الرامي الذي قال : " قال المعلم محمد سألت القاضي ابن الرفيع عن رجل عمل في داره رحى فاشتكى جاره الضرر مما لحق حيطان داره من هذه الرحى فيأتي صورة يعلم في هذا الحائط، فقال يأخذ

60 . موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، الشركة الوطنية، الجزائر ، 1971م ، ص119.

61 . المرجع نفسه والصفحة .

62 . محمد حسن، المرجع السابق، ص494.

63 . البرزلي ، فتاوى البرزلي جامع مسائل الْحكام لما نزل القضايا بالمفتين والحكام ج4 ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، (د– ت) ،ص 282.

طبقا من كاغد وتربط أركانه بأربعة أخياط في كل ركن خيط و تجمع أطارف الْخياط وتعلقهم من السقف الذي على الحائط الفاصل بين الدار وبين الرحى من جهة الدار، و تعمل على الكاغد من كزبر يابس وتقول لصاحب الرحى اقلع رحاك ن كان لا يهتز الكزبر على الكاغد قيل لصاحب الدار اترك صاحب الرحى لأنها لا تضر بك ... " .[64]

أما ما يخص بحرفة دباغة الجلود فقد شهدت هي الأخرى انتشاراً واسعا في بلاد المغرب العربي الإسلامي ؛ نظرا لوفرة الماشية وكان يستعمل في الدباغة قشور الرمان والقرط والشب والسماق[65] وفي هذا يقول ابن حوقل :" وبها جلود تدبغ بالقرظ و تعم أكثر المغرب فتأتي من طيب الرائحة ونعمة اللمس بمثل حال الأديم الجرثي " .[66]

كان الدباغون ينظفون جلود الأغنام والأبقار وينشرونها في الطرقات لتجفيفها .[67]

كانت لهذه الحرفة ضرر بالغ على السكان ؛ بسبب الروائح الكريهة التي تصدر عنها ، حيث كانت محل انتقاد ومعارضة من قبل الفقهاء الذين بينوا ضررها وطرق الوقاية والتخلص من الروائح الكريهة التي تسببها حرفة دباغة الجلود على عامة الناس في المجتمع العربي الإسلامي ببلاد المغرب ، وهناك نوازل توضح ذلك – منها على سبيل المثال وذلك لما طرح من نوازل حولها حيث سئل أبو محمد عبد الله الزواوي عن قوم كانت لهم دور دباغة فأخرجوا خارج الصور المعد للدبغ وبقوا فيه قربة الثلاثين عاماً ، فرجع أحدهم إلى موضعه كما كان لكن الجيران احتجوا عليه فأجاب بأنه مغصوب على الخروج والبقاء في موضعه الجديد .[68]

---

64 . الونشريسي، المصدر السابق ، ص 305.

65 . جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 55.

66 . ابن حوقل ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1995م ، ص72.

67 . مختار حساني، المرجع السابق، ص 91.

68 . الونشريسي، المصدر السابق ، ج8 ، ص 441.

الخاتمة

صفوة القول مما عُرض سابقاً يتضح أن :

1 هناك هيئة تنظيمية مصغرة تشرف وبشكل مباشر على عملية سير الأسواق بمختلف تخصصاتها؛ لغرض إعطاء نمطية من الحياة السليمة والصحية لسكان المغرب العربي الإسلامي وهذه الهيئة هي الفقيه والمحتسب اللذان يعتبران الركيزة الأساسية في نظام عمل الأسواق المغربية خلال العصور الوسطي.

2 نتيجة للعمل المناط والمحدد والتنظيمي للفقيه والمحتسب تم وضع هيكلية صحيحة للأسواق ، حيث تقسيمها لأسواق داخل المدن وأخرى خارجها بها العديد من الحرف والمهن تمارس وفق معايير محددة وبما يتوافق مع الشريعة الإسلامية .

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

1 أبو القاسم بن حوقل النصيبي ، (ت 367هـ/ 977م) صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1995م .

2 ابن عبد الرءوف القرطبي (ت 242هـ) ، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق : ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، 1955م .

3 _____ ، آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق: فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم ، الرباط ، (د- ت) .

4 أبو الأصبغ عيسي بن سهل الجياني (486هـ) ، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام ، تحقيق: يحيي مراد ، دار الحديث ، القاهرة ، 2007م .

5 أبو العباس أحمد بن يحيي الونشريسي ، (ت 914هـ / 1509م) المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ج9 ، وزارة الشؤون الدينية للمملكة المغربية، الرباط، 1981م .

6 أبو القاسم بن محمد البلوى البرزلي (ت 841هـ/ 1438م) ، فتاوى البرزلي جامع مسائل الْحكام لما نزل القضايا بالمفتين والحكام ، ج4 ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، (د- ت) .

7 . أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي عرف بابن الرامي البناء: الإعلان بأحكام البنيان، تحقيق : فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي ، تونس ، 1999م.

8 أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي ، في آداب الحسبة، تحقيق : ليفي بروفنسال ، طبعة دنن ، (د- ت)

9 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني ، (ت 871هـ / كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق : على الشنوفي ، خزانة التراث العربي ، القاهرة ، 1967م .

10 أبو العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم بن تيمية ، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، در الكتب العلمية ، بيروت ، (د _ ت) .

11 عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيرازي الشافعي ، (ت 570هـ) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ، 2010م .

12 محمد بن محمد بن أحمد القرشي بن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، مطبعة دار الفنون، ، بكيسبرج، 1938م.

13 تقي الدين احمد بن عبد القادر المقريزي (ت 845هـ / 1441م) ،اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج 2 ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1999م .

14 الحسن بن محمد الوازن الفاسي: وصف إفريقيا، ترجمة : محمد حجي، دار الغرب، الإسلامي، بيروت ، 1983م.

15 مؤلف مجهول ، أرجوزة في علم الحسبة ، تحقيق : محمد فرقاني ، منشورات نوميديا ، الجزائر ، 2014م .

16 محمد بن مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ج1-2 ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ، 1999م .

17 مارمول كريخال: إفريقيا، ج2 ، ترجمة : محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط ، 1989م .

18 يحيي بن عمر الأندلسي ، أحكام السوق في جميع أحوال السوق، الشركة التونسية للتوزيع ،تونس ، 2005م .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة:

19 أنور محمود زناتي ، معجم المصطلحات التاريخية و الحضارة الإسلامية ، دار زهران ، عمان ، 2011م .

20 جمال أحمد طه: مدينة فاس في عصري ألمرابطي والموحدى 448هـ / 668م ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، 2001 م .

21 جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرن 4 الهجري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، (د- ت) .

22 على محمد بن سعيد الزهراني ، الحياة العلمية في صقلية الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، 1995م .

23 محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج2 ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999م .

24 محمد محمد زيتون ، القيروان ودورها الحضارة الإسلامية ، دار المدار ، القاهرة ، 1988م .

25 مختار الحساني ، تاريخ الدولة الزيانية، الأحوال الاقتصادية والثقافية، منشورات الحضارة ، الجزائر ، 2009م .

26 موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، الشركة الوطنية، الجزائر ، 1971م .

27 نجلاء سامي النبراوى : المرأة العاملة بالمغرب والأندلس ، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية ، (د- ت) .

28 الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، ج2 ، ترجمة : حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط2 ، 1992 م .

ثالثاً: المجلات والدوريات العلمية :

29 سعيد بن حمادة، " المغرب: جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية بالمغرب الإسلامي "، مجلة عصور جديدة ، جامعة وهرن، الجزائر، 2012م ,

30 عبد العزيز بن عبد الله: كيف بدأ التصنيع في المغرب؟، مجلة دعوة الحق، العدد 267 ، أكتوبر ، الرباط ، 1987م .

رابعا: الرسائل العلمية :

31 الصحصاح حمد محمد حمد، الحسبة في الدولة الفاطمية (297 – 567 هـ) ، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، كلية الآداب بجامعة الخرطوم، 2000م .